Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 44:1 (2009)

أدب الحوار في القصة القرآنية
"قصة نوح عليه السلام نموذجاً"

عودة عبد عودة عبد الله

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فمن القضايا التي أثارها القرآن الكريم ونوّه إلى أهميتها قضية تدخل في موضوع الحوار، كما جرى استعمال هذا المصطلح في اللغة المعاصرة مع أن لفظ الحوار لم يرد في كتاب الله ولكن اعتنى القرآن الكريم بهذا الموضوع عناية فائقة، وأوْلاه اهتماماً خاصاً، وركّز على طبيعة الأسلوب الذي يجري به التعامل والاحتكاك بين بني آدم. كيف لا؟ والحوار أهم وسيلة للاتصال بين بني الإنسان، وأكثر الوسائل قدرة على التأثير في الآخرين. فالقرآن الكريم الذي هو عنوان البلاغة وينبوعها قد استعمل هذا الأسلوب في كثير من آياته، لما فيه من التأثير الفائق الوصف. وجاء الإسلام ليكون دين الحوار، الذي يطلق المجال لإعمال العقل في القضايا المطروحة، ليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل، وليعلمهم كيفية الوصول إلى الحقائق، عن طريق الكلمة الحلوة، والأسلوب الطيب، والجدال بالتي هي أحسن.

ويحاول هذا البحث إلقاء نظرةٍ فاحصة على أسلوب الحوار في القصّة القرآنية، بغرض فهم طبيعة هذا الأسلوب، لنحذوَ حذوَ القرآن، ونقتبس لمساته الفنية في هذا المجال، لأنّ معرفة أسلوب الحوار، أمرٌ في غاية الأهمية لكل داعية، في كل زمان وفي كل مكان.

المبحث الأول: الحوار: أهميته وآدابه

أولاً: مفهوم الحوار وأهميته:

الحوار: أسلوبٌ يجري بين طرفين، يسوق كل منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به، ويراجع الطرف الآخر في رأيه قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره[1].

1- عبد الستار الهيتي: **الحوار: الذات والآخر**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2004م، ص40.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

والحوار ظاهرةٌ إنسانية مرتبطة بوحي العقل وإلهامه، وراجعة في نشأتها إلى طبيعة الإنسان المفكرة الناطقة، فهو يؤمن بفكرة معينة فيعرضها ويوضح أهدافها ويدافع عنها، فإذا خالفه في الرأي أحد من البشر، استجمع أفكاره وقدّمها عن طريق حوار يبعث إلى إشغال الذهن وإعمال الفكر، ليضيف إلى عقولنا معلومات جديدة، وليفتح أمام أهل العلم آفاقاً واسعة في المعرفة.

وصفة الحوار صفة ملازمة للإنسان، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2]. فقد فطر الله الإنسان على مواجهة هذه الحياة بما فيها من أوضاع وأحداث، بعقلية منفتحة لا تستقر على حال، فتراه يفتش عن الشيء وضده، وعن الحق والباطل، ليجادل في هذا ويحاور في ذاك، فلا يتيقن إلا ليتململ في رحلة جديدة نحو الشك، ولا يشك حتى يبدأ رحلته الطويلة نحو اليقين.

وهكذا تتنوع الأفكار والآراء في كل مرحلة من مراحل حياته، تبعاً للقضايا التي تُثار، والأوضاع العامة التي تفرض هذا الرأي أو ذاك، مما يجعل قضايا الفكر تتنامى وتخلّف وراءها العديد من الأتباع والأنصار. وفي ضوء ذلك كله ينشأ الحوار، في محاولة لتحقيق الانتصار، أو مواجهة الهزيمة في هذه المعركة الفكرية والعقائدية[3].

أما الحوار في دلالته الواقعية، ففيه محاولة من كلا الطرفين لأنْ يقنع أحدهما الآخر بمنطقه ورأيه. فالحوار إذاً مباراة أداتها الكلام، ومن الواضح أنّ القرآن الكريم جعل الاهتمام بالكلام والمنطق في المكان البارز المرموق. فمما تجدر الإشارة إليه هنا أن أهمية الحوار تنبع من أهمية الكلام نفسه، الذي يُعدّ السلاح الذي يحمله كل نبيّ لتبليغ دعوته إلى الآخرين، إذْ لا نزاع في أنّ مهمة الرسل هي أنْ يبلغّوا دين الله للناس فيخرجوهم من الضلال والجهل إلى المعرفة الصحيحة لله أولاً، ثم يبينوا لهم الأسلوب الأمثل لتطبيق شرع الله، وهذا بطبيعة الحال يستلزم الحوار الدائم والمتواصل بينه وبين المرسَل إليهم، هو يريد أن يقنعهم بدعوته، وهم يجادلونه للتمسك بتقاليدهم وموروثهم الحضاري. ومن هنا تبدو أهمية الكلام باعتباره السلاح الأساسي في هذه الحرب الإعلامية أو النفسية، وإذا كانت سائر الأسلحة العسكرية والنفسية، يمكن لشيء منها أن يؤدي بعض الغرض الذي يؤديه السلاح الآخر، فإن الكلام هو السلاح الوحيد الذي لا يستغني عنه الداعية، ولا يجد شيئاً قط يحل محله، أو يغني عنه أيّ غناء[4].

2- سورة الكهف، الآية: 54.

3- انظر: محمد حسين فضل الله: **الحوار في القرآن**، دار الملاك، بيروت، ط 6، 1421هـ/ 2001 م، ص 55-56.

4- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 2، 1985م، ص 16-17.

ولذلك فقد جعل موسى عليه السلام قضية الكلام مطلباً أوّلياً يدعو ربه أن يحققه له: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾[5]. بل نلحظ أنه حينما تحدث عن الكلام ربط به جوهر رسالته كلها في فهم الناس عنه ﴿ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ لأنهم إذا لم يفقهوا قوله فقد انفصمت الرابطة بينه وبينهم، لانعدام وسيلة الاتصال والتفاهم.

فموسى عليه السلام لم يطلب من الله قوة أو سلاحاً ليخوض معركته المقبلة، وإنما طلب لساناً كامل البيان، ولم يكن لسانه كذلك، فطلب الاستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[6]. وطلاقة اللسان وحسن العرض والصياغة البليغة، التي أعلن موسى عليه السلام أنه بحاجة إليها هي ذاتها الأدوات التي يحتاجها كل داعية إلى الله في كل زمان ومكان[7].

وقد أشار القرطبي إلى أهمية الحوار باعتباره وسيلة للتفريق بين الحق والباطل عن طريق استخدام الحجج والبراهين، وإفحام الخصم. فقال في تفسير الآيات التي تتحدث عن المحاجّة والمجادلة: "ذلك من الآي فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والحوار والمجادلة في الدين، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ورفض حجة الباطل"[8].

ومما يدل على اهتمام القرآن بالحوار، وحرصه على الأسلوب الذي يؤدَّى به، أنّ القرآن الكريم لم يَقصُر عملية الحوار على مجابهة الأعداء والتصدي للمخالفين، وإنما جعلها في كثير من المواضع نماذج للتربية وللتعليم والتوجيه، كالحوار بين إبراهيم وابنه إسماعيل، وبين موسى وأخيه هارون، وبين موسى وأستاذه الخضر، وبين مريم وابنها الرضيع. وليس غريباً أنْ يعطي القرآن الكريم الحوار كل هذه الأهمية، فإن الحوار بالحجة هو الطريق الأمثل، بل الوحيد للإقناع العقلي، والإقناع أساس الإيمان إنْ لم يكن الإيمان نفسه. وأي دين أو مذهب لا بد لاعتناقه من اقتناع، وإذاً فالحوار له هذه الأهمية في الدعوة إلى أيّ دين أو مذهب[9].

5- سورة طه، الآيات: 25-28.

6- سورة القصص، الآية: 34.

7- عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 17-18.

8- أبو عبد الله محمد أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد عبد الحليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط 2، 1372هـ، ج 3، ص 286.

9- عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 27-28.

ثانياً: آداب الحوار وأخلاقه:

إذا أردنا للحوار أن يبقى عذباً رقيقاً، بعيداً عن الفوضى والمهاترة، فلا بدّ أن يرتبط بمجموعة من الآداب الفاضلة والأخلاق النبيلة، حتى يبقى الفكر متقداً والعطاء موصولاً، وسنعرض فيما يأتي لأهم آداب الحوار وأخلاقه:

1. **الكلمة الطيبة والقول الحسن:**

الكلام صفة المتكلم، وبمقدار ما يكون الكلام محتوياً على شروطه الموضوعية والأخلاقية يبلغ هدفه، وينجح صاحبه في التأثير في الآخرين. فالكلام نظام لغويّ مكتسب، وكلّما كان الشخص أكثر مهارة في استخدامه، كان أكثر فاعلية في حواره مع الآخرين.

إنّ أول أهداف الحوار هو الإفصاح والإبانة عن فكرة ما، بأفضل أسلوب ممكن، ولذلك ينبغي مراعاة ما يأتي[10]:

- مناسبة الكلام لطبيعة الموقف أو الموضوع.
- مراعاة المستوى المعرفي للمتلقي، فليس من المناسب أن يتحدث عالم لجاهل بكلام فوق مستواه.
- الإفصاح عن الأفكار بأسلوب رشيق غير ممل.
- استشعار الثقة بالنفس وامتلاك الشجاعة الأدبية في التعبير.
- الإيجاز من غير إخلال بالمعنى، لأن التكرار يذهب برونق الكلام ويدعو إلى الملل والعزوف عن الاستماع.

ومن هنا فقد حَرص القرآن الكريم على الطريقة التي يجري بها الحوار، وكان كثيراً ما يُوجِّه نحو الكلمة الطيبة والقول الحَسَن. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[11].

10- راشد علي عيسى: **مهارات الاتصال**، طبعة وزارة الشؤون والأوقاف الإسلامية، الدوحة، 2004م، ص 97-98.

11- سورة إبراهيم، الآيات: 24- 27.

فالكلمة الطيبة نفحة روحانية تصل ما بين القلوب وتربطها برباط المودّة والتآلف. أما الكلمة الخبيثة فهي معول للهدم والتفريق، يعمل تخريباً في أوصال المجتمع فيهدّ كيانه. والكلمة الطيبة تزهر في النفس لتتفتّح بأجمل أزهار الخير والحب التي يعبق شذاها فوّاحاً في كلّ زمان ومكان. والكلمة الخبيثة نتنة الرائحة، تصدر عن بُؤَرٍ نفسية عفنة[12].

وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[13]. وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[14]. قال ابن كثير: "يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إنْ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفِعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو آدم وذريته، من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بيّنة"[15].

وعليه فإن الآية تشير إلى مبدأ مهم في أدب الحوار، لتكوين العلاقات الطيبة مع الآخرين، بحيث تكون الكلمة الطيبة هي الأساس في بناء تلك العلاقات، وتكون عناوين إنسانية في انفتاح الإنسان على الآخر، لأن القول الحسن في اللفظ والمعنى يفتح القلب وينعش الروح ويقوّي الروابط بين الناس[16].

والمتتبع للحوارات التي يزخر بها تراثنا يدرك الأدب الرائع بين المتحاورين في أدق قضايا الإسلام وأحكامه، ويطلع على النماذج المشرقة التي حواها ذلك التراث الفكري والمعرفي. ومن هذه النماذج الفاضلة، الحوار المكتوب الذي تم تبادله بين عالمين جليلين من علماء الأمّة هما: إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإمام مصر وعالمها الكبير الليث بن سعد، فعلى الرغم مما اشتملت عليه تلك الرسالتان من عرض لمسائل وأحكام عديدة، فقد جاءتا آية مشرقة من آيات الحوار الراقي العفيف الذي نحن بحاجة إلى مثله في هذه الأيام، وسنعرض لجزءٍ من هذا الحوار.

12- غازي صبحي آقبيق: **آيات قرآنية: ومضات من القرآن الكريم**، دار الفكر، دمشق، ج 2، ص 99.

13- سورة الإسراء، الآية: 53.

14- سورة البقرة، الآية: 83.

15- أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت، 1401هـ، ج 3، ص 46.

16- انظر: محمد حسين فضل الله: **تفسير من وحي القرآن**، دار الملاك، بيروت، ط 2، 1419هـ/ 1998م، ج 2، ص114- 115.

يقول الإمام مالك: واعلم ـ رحمك الله ـ بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة لما عليه الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك، حقيق بأن تخاف على نفسك. فانظر رحمك الله فيما كتبتُ لك، واعلم أني أرجو أن لا يكون قد دعاني إلى ما كتبتُ به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك، فأنزل كتابي منزلته، فإنك تعلم أني لم آلك نصحاً.

ويجيب الإمام الليث على هذه الألفاظ الطيبة بمثلها قائلاً: قد أصبتَ بالذي كتبتَ به من ذلك، ووقع مني بالموقع الذي تحب .. ثم قال: وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا، وقد كنتُ كتبتُ إليك في بعضها فلم تجبني، فتخوفتُ أن تكون استثقلتَ ذلك فتركتُ الكتاب إليك في شيء مما أنكرت ... ثم يبين الإمام الليث أنه ثابت على رأيه مخالف في ذلك رأي الإمام مالك في العديد من المسائل والآراء دون مجاملة أو مداراة على حساب الحق، ثم يختم كتابه بقوله: وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وإن نأت الديار فهذه منزلتك عندي ورأيك فيه فاستيقنه، ولا تترك الكتابة إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أَسَرُّ بذلك[17].

إنّ هذة النماذج الحوارية الرائعة تدعو الناس إلى أن يرجعوا إلى أدب الإسلام في الحوار بدل أن يُنصّب بعض الناس أنفسهم أوصياء على الأمة وعقولها وتفكيرها، فيتهمون هذا ويفسّقون ذاك، ويشيعون الخوف من المشاركة في الفكر وإبداء الرأي، حتى توقف العلماء عن الخوض في كثير مما يحتاج إليه الناس من اجتهاد، وأقفلت بسبب ذلك أبواب الحوار بالتي هي أحسن، لتفتح بدلاً عنها أبواب الصراع والمشاجرة .

2ـ الصمت وحُسن الاستماع:

نَظراً لما قد يجرُّه الكلام على الإنسان من مصائب وويلات، فقد عدَّ الإسلام الصمت فضيلة ينبغي على المسلم الحرص عليها، وبيَّن لنا أنَّ الصمت في كثير من الحالات قد يكون خيراً من الكلام. قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَمَتَ نَجَا"[18]. ونُقل عن أبي الدرداء أنه قال: أَنْصِفْ أذنيك مِنْ فيك، فإنما جُعل لك أذنان اثنتان وفم واحد، فاسمع أكثر مما تقول[19].

17- محمد بن أبي بكر ابن القيم الدمشقي: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م، ج 3، ص 83-88.

18- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي: **السنن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم 50، حديث رقم 2501، ج 4، ص 660.

19- أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي: **العقد الفريد**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ج 2، ص 302.

وللشافعي رَدٌّ جميل على مَنْ يلومه على السّكوت في مخاصمة الجاهل. يقول:

قالوا: سَكَتَّ وقدْ خُوصمتَ قُلْتُ لهم إنّ الجوابَ لِبابِ الشرِّ مفتاحُ
والصَّمتُ عن جاهلٍ أو أحمق شَرَفٌ وفيهِ أيضاً لِصَوْنِ العرْضِ إصلاحُ
أمَا تَرى الأُسْدَ تُخْشَى وهْيَ صامتةٌ؟ والكلبُ يُخْسَى لعَمْري وهْوَ نَبَّاحُ[20]

ولا ينبغي للصمت أنْ يكون سلبياً، فالصمتُ لا يعني شرود الذهن وعدم الفاعلية، بل لابد مع الصمت من حضور الذهن المتمثل في حسن الاستماع. لذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد ربط بين الصمت وحُسْن الاستماع في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[21]. فلا يكفي مجرد الصمت إذا قرئ القرآن، بل لا بد مع ذلك من حسن الاستماع، أي السماع للقرآن بتدبر ووعي.

وحُسْن الاستماع أدبٌ لا بد من مراعاته، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يتقن فنَّ الكلام ما لم يتقن فنَّ الاستماع. وقديماً قال أحد الحكماء لابنه: يا بني تَعَلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الحديث[22]. وقد نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة حُسن الاستماع. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[23].

فالإصغاء وحُسن الاستماع مهارة لابد من إتقانها، لما لها من أهمية كبرى في بناء العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات، وهي وسيلة مُجدية في إيجاد الفهم المتبادل بين الناس، ومساعدتهم في حلِّ مشكلاتهم، والتخفيف من آلامهم، وما يحسون به من ضيقٍ وحزن. جاء في كتاب **فن التفاوض** لوليام أوري ما نَصُّهُ: "إنَّ الإنصات عظيم الفائدة، فهو يفتح لك نافذة لترى ما يدور في عقل الطرف الآخر، كما يجعل الطرف الآخر على استعداد للإنصات إليك. فلو أنَّ الطرف الآخر كان غاضباً أو قلقاً، فلماذا لا تحاول أنْ تستمع إلى شكواه. لا تقاطعه حتى لو شعرتَ أنه مخطئ، أو أنه يهينك. ويمكنك أنْ تُشْعره

20- محمد بن إدريس الشافعي: **ديوان الإمام الشافعي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1404هـ/ 1984م، ص63.

21- سورة الأعراف، الآية: 204.

22- أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي: **تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص 72.

23- سورة الزمر، الآية: 18.

بإصغائك إليه عن طريق تركيز نظرك عليه، أو هزّ رأسك من آنٍ لآخر، أو ترديد عبارات مثل: "نعم، نعم" أو "أنا أفهم ما تقصده" وعندما ينتهي من حديثه، اسأَله بهدوء إن كان لديه شيء آخر يريد أن يضيفه، وشجّعه على أنْ يُفضي إليك بكل ما يضايقه، بأن تقول لـه مثلاً: "من فضلك استمر في حديثك" أو "ماذا حدث بعد ذلك؟". وبمجرد أنْ تُنصت لما يريد الطرف الآخر أنْ يقوله، فغالباً ما سيؤدي ذلك إلى تهدئته، ليصبح أكثر تعقّلاً وأكثر استجابة بشأن حل المشكلة، واستصدار القرار المطلوب، فليس من قبيل الصدفة أنَّ أفضل المحاورين غالباً ما يستمعون أكثر مما يتكلمون"[24].

وبالنظر في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم فإننا نجد أنه كان نموذجاً رائعاً في الإصغاء وحسن الاستماع، فكان إذا حدثه أحد يتجه إليه بكُلِّيته، رجلاً كان أو امرأة أو صبياً أو خادماً. وبهذا السلوك القويم استطاع أنْ يجعل لنفسه مكانة عظيمة وجليلة بين أصحابه. بل إنه صلى الله عليه وسلم كان يمتاز بأدب الإصغاء والاستماع حتى مع أعدائه، وللتدليل على ذلك نذكر هذه الحادثة:

رُوي أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي، إنك منا حيثُ قد علمتَ من السلطة في العشيرة والمكان من النسب، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم، وكفَّرْتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أَعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "قلْ يا أبا الوليد أسمع". فقال لـه عتبة ما قال، حتى إذا فرغ قال له صلى الله عليه وسلم: "أَوَقَدْ فَرَغتَ يا أبا الوليد؟". قال: نعم. قال: "فاسمع مني". قال: أَفْعَل. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليه من سورة فصِّلت حتى إذا انتهى إلى الآية موضع السجدة منها سجد، ثم قال لعتبة: "قد سمعتَ يا أبا الوليد فأنتَ وذاك". فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، وطلب عتبة إليهم أن يَدَعُوا الرسول صلى الله عليه وسلم وشأنه. فأبوا وقالوا له: سَحَرَكَ يا أبا الوليد بلسانه[25].

وهذه القصة كلها دروس في أدب الحوار، نكتفي منها بالذي نحن بصدده، فالرسول عليه السلام لم يحسن الإنصات ويترك المقاطعة فحسب، بل منحه فرصة أخرى لإضافة أي شيء ربما

24- وليام أوري: **فن التفاوض**، ترجمة: نيفين عزاب، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م، ص 67- 68.

25- أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري: **السيرة النبوية**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411هـ، ج 2، ص 130-131.

نسيه، أو غفل عنه: "أَوَقَدْ فرغتَ يا أبا الوليد؟" وهذا خلق رفيع وأدب جمّ يستدعي حُسن إصغاء من الطرف الآخر.

ومن حُسن الاستماع أنه إذا كان السامع عالماً بكلام المتحدث، فإنه ليس من الأدب مقاطعته ومداخلته فيه، بغرض الإظهار للآخرين معرفة هذا الحديث والعلم به. قال عطاء بن أبي رباح: إنَّ الشاب ليحدثني بحديث، فأستمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعتُه قبل أنْ يولد[26]. وأنشد الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تُشاركْ في الحديثِ أهْلَهُ وإنْ عَرَفْتَ فَرْعَهُ وأصْلَهُ[27]

ومن حُسن الأدب أيضاً، أنه إذا أشكل على المستمع شيء من كلام محدِّثه، فإن عليه أنْ يصبر حتى الانتهاء من الحديث، ثم يستفهم منه بأدب ولطف وتمهيدٍ حَسَنٍ للاستفهام، ولا يقطع عليه كلامه، فإنَّ ذلك مخلٌّ بأدب الاستماع، إلا إذا كان المجلس مجلس دراسة وتعلُّم، فإن له حينئذٍ شأناً آخر، ويحسن فيه السؤال والمناقشة عند تمام الجملة أو المعنى الذي يشرحه المعلِّم، وينبغي أنْ تكون المناقشة فيه بأدب وكياسة[28].

3ـ التواضع:

من أدب الحوار أن يتجنب المحاور الحديث عن نفسه، أو عن أولاده، أو عن أعماله وإنجازاته، لأن شرّ المتحدثين من آثر الحديث عن أحواله وأكثر الكلام عن نفسه، فإن فعل ذلك فإنه يفقد شرط الحوار الناجح. فالحديث الذي يكون مصحوباً بتزكية النفس ومدح الذات يترك انطباعاً سلبياً لدى السامع، يجعله ينفر منه ويزهد في الاستماع إليه.

ومن هنا فقد نهى المولى عز وجل عن تزكية النفس فقال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[29]. قال ابن كثير: "أي لا تمدحوها وتشكروها وتمنُّوا بأعمالكم"[30]. وهذا توجيهٌ للمؤمنين، فالله أعلم بحالهم، وهو المطَّلع عليهم من أول خلقهم إلى آخر يومهم، فلا حاجة لتزكية النفس رياء

26- ابن مفلح المقدسي: **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، ج 2، ص 118.

27- المرجع السابق، ج 2، ص 119.

28- انظر: عبد الفتاح أبو غدة: **من أدب الإسلام**، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 2، 1413هـ، ص 65.

29- سورة النجم، الآية: 33.

30- ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج 4، ص 258.

وخيلاء، ولا يقولنَّ الواحد للآخر: أنا خير منك، وأنا أزكى منك وأتقى، فإن الأمر لله. ولا يستطيع أحدٌ أنْ يقطع بنجاته وخَلاصه أيّاً كان، فإنه لا يعلم عاقبة الأمور إلا الله[31].

لذلك جاء القرآن الكريم في صيغة المتعجِّب من حال هؤلاء الذين يُزكُّون أنفسهم ويمدحونها وكأنهم ضمنوا رضا الله، وأمنوا مكره، واطمأنوا وأخذوا المواثيق من الله تعالى على أنْ يدخلهم الجنة. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[32]. وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن تفضيل النفس على الغير والتفاخر على الآخرين. فقال: "إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحد، ولا يـبغي أحدٌ على أحد"[33].

والإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وينزله منزلة الجاهل الذي ينبغي أنْ يتعلَّم من محدِّثه، ويكره من يكون نصف حديثه ذِكْراً لأمجاده وتعالياً على الآخرين. ومدح النفس غالباً ما يكون نتيجةً للشعور بنقص في الشخصية، وحُباً في الظهور والتميز، فإن الذي يثق بقدراته وكفاءته لا يحتاج أن يُعلن ذلك على رؤوس الأشهاد. لذا فليس من الأدب أنْ يُثقل المتحدث على سامعيه بذكر بطولاته وأمجاده.

4ـ احترام المحاور وكسب ودّه:

بغضّ النظر عن الاختلاف في الرأي والتباين في الفكرة، فإن أدب الحوار يقتضي احترام آدمية الإنسان وإنسانيته، ومن الأمور التي تحقق ذلك[34]:

- اهتمام المحاور بالطرف الآخر من خلال الانتباه لكلامه، وعدم اللجوء إلى تجاهله أو الشرود والانشغال عنه بشخص آخر أو بموضوع آخر.
- تحاشي تحقير الطرف الآخر، أو اللجوء إلى النقد الشخصي فيما يخص سيرته الفردية أو العائلية.
- فسح المجال أمام الطرف الآخر للدفاع عن وجهة نظره كاملة، والتعامل مع طروحاته بصدر رحب عن طريق إتاحة الوقت الكافي لعرضها وبيانها.

31- انظر: فخر الدين محمد بن محمد الرازي: **مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 26، ص 15.

32- سورة النساء، الآية: 49.

33- مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب رقم 16، حديث رقم 2865، ج 4، ص 2198.

34- انظر: عبد الكريم الشيخلي: **أخلاقيات الحوار**، دار الشروق، عمان، ط1، 1993م، ص 69-70.

وعلى المحاور أن يختار من الألفاظ ما هو محببٌ لدى الطرف الآخر، وما يقع في نفسه موقع القبول والتأثير، كأن يناديه باسمه المحبب إليه، أو صفته التي يحبها. كأن يقول لابنه: "يا بني"، ولأبيه "يا أبت"، ولقومه "يا قوم"، ونحو ذلك.

ويحدثنا القرآن الكريم عن خطاب موسى لفرعون، فيقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[35]. وأوَّل ما يلفت نظرنا في هذا الخطاب أنَّ موسى عليه السلام نادى فرعون بأحبِّ الأسماء إليه، فقال: يا فرعون. وهو الاسم الذي يُشعر فرعون بالقوة والعظمة وعدم الانتقاص من مكانته، وفي ذلك مداراة له ومراعاة لنفسيته.

ونرى هذا الأسلوب بعينه ماثلاً في منهج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان يخاطب الزعماء بمثل قوله: "إلى هرقل عظيم الروم"[36]. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان بالموسم بمنى، يعرض نفسه على القبائل، فجاء إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: "يا بني عبد الله، إنَّ الله عز وجل قد أَحْسَنَ اسمَ أبيكم"[37]، يريد أنْ يتلطف لهم بالكلام. وليس في ذلك تنازل عن المبادئ، ولكنه الأدب في الحوار والذوق في التعامل مع الآخرين.

5ـ استخدام الأسلوب العقلي والمنطقي:

لا بد أن يتسم الحوار بطابع الاعتماد على العقل وتطبيق المقدمات المنطقية السليمة، سواء ما يتعلق بتقديم الفكرة والتدليل عليها، أو ما يتعلق بقبول ما يطرحه الطرف الآخر ما دام أنه قد وصل إليها بالمنطق السليم والحجة القوية.

والحوار في القرآن الكريم يعتمد على العقل والمنطق، ولا يتاثر بأيّ عامل خارجي كالنبوة والوحي. ولا شك أن الحوار الذي يعتمد على الحجة الواضحة والدليل المنطقي القوي سيؤدي في النهاية إلى الحرية في التفكير، والتخلص من التعصب والانحياز. وها هو إبراهيم عليه السلام في حواره مع الله عز وجل، كيف يقدّم نفسه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

35- سورة الأعراف، الآية: 104.

36- البخاري: **الجامع الصحيح**، كتاب بدء الوحي، باب رقم 6، حديث رقم 7، ج 1، ص 9.

37- ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج 2، ص 271. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1407هـ، ج 1، ص 556.

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[38]. فإبراهيم عليه السلام يريد هنا التحاور ضمن قواعد العقل والمنطق، ويرفض وجود أي مؤثر في الحوار غير العقل[39].

المبحث الثاني: مقتطفات من أدب الحوار في قصة نوح عليه السلام

تحدَّث القرآن الكريم عن قصة نوح مع قومه في أكثر من سورة، فقد جاء الحديث عن هذه القصة في سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء ونوح. وبما أنَّ هذا البحث ليس بصدد تحليل موضوع القصة في القرآن، بل هو بصدد تلمُّس جانب الأدب في الحوار الدائر بين نوح عليه السلام وقومه، لذلك فإنَّ البحث سيقتصر على الجوانب الأدبية التي وردت في هذه القصة، وسيُكتَفى في ذلك بما جاء في سورة هود تحديداً، كنموذج يمكن من خلاله أخذ تصوّرٍ كافٍ عن منهج نوح في الحوار. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[40].

وبعد إمعان النظر في الآيات القرآنية السابقة، نستطيع استخلاص جوانب الأدب في حوار نوح عليه السلام في اتجاهين، وذلك على النحو التالي:

أولاً: الأسلوب الذي اختاره نوح في طرح دعوته:

يظهر الأدب في الطريقة التي سلكها نوح عليه السلام في طرحه للموضوع من خلال[41]:

38- سورة البقرة، الآية: 260.

39- انظر: عبد الستار الهيتي: **الحوار: الذات والآخر**، ص 58- 59.

40- سورة هود، الآيات: 25- 34.

41- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 69- 70.

1 - **التمهيد:**

حيث مهَّد نوح عليه السلام للموضوع الذي سيطرحه بطريقة عنيفة قوية، ليُحْدِث في نفوسهم جَلَبَة وقلقاً يُهيِّئها للاهتمام والترقُّب الشديد لما سيقوله لهم، وقد صاغ نوح هذا التمهيد بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. وكثيراً ما تكون البداية القوية أسلوباً بالغ الأهمية في لفت الأنظار للموضوع المطروح.

2 - **صلب الموضوع:**

من أدب الحوار أنْ تُعرض المواضيع ذات الأهمية الكبرى بكلماتٍ بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض حتى يفهمها المخاطبون على المستويات المختلفة. وهكذا فقد اختار نوح عليه السلام لموضوعه ألفاظاً واضحة المعنى والمراد، كي لا يصرف الذهن عن المعنى الأصلي المراد، ولا يترك أيّ مجال للتأويل. فلخَّص موضوع رسالته بقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

3 - **الخاتمة:**

وذلك بالتعقيب مباشرة بذكر النتيجة المتوقعة إنْ استمروا على سلوكهم، وقد جاءت هنا بأسلوب التهديد والتخويف، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ حتى يملأ نفوسهم رهبة من العصيان، وحتى لا يترك لهم مجالاً للتهرّب أو الرّوغان.

ولا يخفى ما في إظهار خوفه عليهم من الأدب معهم، إنه يدعوهم إلى الله وينذرهم العذاب بمحبَّةٍ عبَّر عنها بالخوف عليهم، تماماً كالذي يحسّ بالهلع إذا سار من يحبه في طريقٍ يؤدي به إلى الهلاك.

ثانياً: الأسلوب الذي حاور به نوح قومه:

بعد هذه المقدمة التي لخَّص نوح عليه السلام من خلالها موضوع دعوته، بدأ يحاورهم بشكلٍ تفصيلي ويردّ على شبهاتهم وتساؤلاتهم. والمتتبع لهذا الحوار يجد أنَّ أدب نوح معهم كان بارزاً من خلال عدَّة أمور، أهمها:

4 - **الحرص على تحقيق الأُلْفة مع قومه:**

كان نوح عليه السلام حريصاً على ألا يَظهر في كلامه أيُّ شيء يمكن أنْ يتخذه قومُه حجةً للابتعاد والنفور، متجاهلاً بذلك ما تعرَّض له من إساءات شخصية، فإنَّ ما يعنيه هو نجاحه في الحوار، ليكون هذا النجاح وسيلة لكسب قلوبهم. ولذلك فإننا نجده يبدأ كلامه معهم بقوله: "يا قوم" منبِّهاً

إياهم إلى هذه الرابطة التي تربطه بهم، ومذكِّراً إياهم ضمناً بأنَّ المرء عادة لا يغشّ قومه ولا يضللهم، ليزيد بهذا من ثقتهم به[42].

5- **اللجوء إلى استثارة عقولهم بصيغة الاستفهام:**

لجأ نوح عليه السلام إلى حثِّ قومه على التفكير عن طريق طرح الأسئلة، فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾. وأرأيتم معناها: أخبروني، والاستفهام للاستنكار[43]. فعلى الرغم مما وجَّهوه إليه من كلام في محاورته لهم، إلا أنه يأخذهم بغاية الرفق واللين. وكأنه يقول لهم: افترضوا أنّ رسالتي التي أكرمني الله بها كانت بيِّنة ظاهرة، ولكنها خَفِيَت عليكم فلم تُدْركوها، فهل نُكرهكم عليها إكراهاً؟ فالمعنى يُمثِّل أعمق الاطمئنان النفسي لهم، حيث يؤكد لهم حرية الاختيار في الدين، كما يقول القرآن في موضعٍ آخر: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[44]. وهذا من شأنه أنْ يزيدهم اطمئناناً إنْ كان لديهم أدنى استعداد[45].

6- **استخدام صيغة البناء للمجهول:**

لم يتهم نوح عليه السلام قومه بالعمى والضلال مباشرة، بل استخدم لذلك صيغة البناء للمجهول، فقال: ﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾. وفي هذه الصيغة ما يشير إلى وضوح الرسالة التي جاء بها نوح، ومن شأن كل العقول أنْ تُدركها، ولولا أنَّ هناك حائلاً حال دون عقولهم لأدركوها، وهذا يمثِّل غاية الرفق بمشاعرهم والحرص على أُلْفتهم. فكأنه يقول لهم: أنا لا أتهمكم بعدم إدراك نبوتي، وإنما أتهم الذي حال بينكم وبينها فلم تدركوها. وهذا يدفعهم تلقائياً إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل[46].

وصيغة البناء للمجهول أو عدم التصريح بصاحب الذنب أو المعصية، بابٌ من أبواب أدب الحوار ينبغي أخذه بعين الاعتبار. فإنه يَجْمُلُ بالمرء إذا وجد خطأً عند شخص ما، أنْ ينبّهه على ذلك الخطأ،

42- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 77.

43- انظر: أبو السعود محمد بن محمد العمادي: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 4، ص 221.

44- سورة البقرة، الآية: 256.

45- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 77- 78.

46- انظر: المرجع السابق، ص 78.

ولكنْ بأسلوبٍ حَسَنٍ يَغْلُب عليه التلميح لا التصريح. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قدوة لنا في ذلك، فقد عُرف عنه أنه إذا وَجَدَ خطأً في بعض أفعال أصحابه أو أقوالهم، لا يُصرِّح بأسمائهم ولا يُشهِّر بهم على رؤوس الأشهاد، لعِلْمه بأنَّ في ذلك خطورة على قلوبهم ونفوسهم، وأنَّ عدم التصريح أحْفَظ لكرامتهم ولماء وجوههم. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنها:

أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما بالُ أقوامٍ يَرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟ لَينتهُنَّ عن ذلك أو لَتُخطفَنَّ أبصارُهم"(47). ورَوَى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: صَنَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فَترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه وتنزَّهوا عنه، فبَلَغَه ذلك، فقام خطيباً، فقال: "ما بالُ رجالٍ بَلَغَهُم عني أمرٌ ترخَّصْتُ فيه فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعْلَمُهم بالله وأشدُّهم له خشية"(48).

7- **الاستدلال الواقعي:**

من أدب الحوار في القضايا الجدلية التي تحتاج إلى دليل، أنْ لا يتركها صاحبها هكذا دون أنْ يبرهن على صحتها.ومن الحكمة البالغة في طريقة الاستدلال أن تترُكَ الأدلة التي ينازع فيها الخصم، أو التي لا تتضح كلَّ الوضوح في ذهنه، ويُلجأ إلى أقرب الأدلة إلى الواقع الذي يفهمه ويُسلِّم به الناس جميعاً. وهكذا فعل نوح عليه السلام، فقد انطلق في كلامه من قضيَّةٍ منطقيةٍ يُسَلِّم بها قومُه، وهي أنَّ كلَّ عملٍ له مقابل. فكأنه يقول لهم: إذا لم أكن رسول الله، وكان ما أدَّعيه لمصلحتي أنا، فهل طلبتُ منكم شيئاً مقابل ما أبذله وما أعانيه؟ وهم لا يُنازعون في أنه لم يطلب مقابلاً، بل يعترفون بهذه الحقيقة. ثم يبين لهم بلطْف أنَّ الأجر الذي ينتظره إنما هو من الله عز وجل لا منهم، فيقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾(49).

8- **الإجابة على تساؤلات قومه:**

من الأدب في الحوارمع الآخرين، ألا تترُكَ تساؤلاتهم مفتوحة دون جوابٍ شافٍ، لأنَّ ذلك علامة على الضعف وعدم التمكُّن من القضية موضوع النقاش، أو على عدم الاهتمام بالطرف الآخر. وتكون الإجابة أمراً في غاية الأهمية، خاصَّةً إذا كان يترتب عليها فائدة أو موقف إيجابي. ولكن لا بدّ من التنبّه هنا إلى ضرورة مراعاة الحكمة واللين وعدم الانقياد وراء الاستفزازات التي يطرحها الطرف المقابل.

47- البخاري: **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان، باب رقم 92، حديث رقم 717، ج 1، ص 261.

48- مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب الفضائل، باب رقم 35، حديث رقم 2356، ج 4، ص 1829.

49- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 78- 79.

وبالنظر في النص القرآني السابق، نجد أنَّ نوحاً سلك هذا الطريق، وظهر ذلك واضحاً في ردوده على حجج قومه وتساؤلاتهم، وذلك على النحو التالي:

أ. الردّ على نفور قومه من أتباعه الضعفاء، بأسلوب ظهر فيه الرِّفق والحرص على أُلفتهم وعدم نفورهم، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾. فهو يبين لقومه أنه لا يمكن أنْ يقوم بطرد الذين آمنوا بدعوته من الضعفاء، فإنَّ الوفاء لهم والصدق معهم لا يبيحان له مثل هذا التصرف، ومن جهة أخرى فإنه لو وافقهم على طلبهم وطردهم، فإنهم لا بدَّ، ملاقو ربهم يوم القيامة، وهناك سيشكونه إلى الله. وهذا الرد من نوح يتضمن أمراً آخر، هو دعوة قومه ضمناً إلى الإيمان بالبعث ويوم القيامة. ثم يبين لقومه أنَّ هؤلاء المؤمنين مسالمون، وأنتم الذين اعتديتم عليهم، فكيف تكونون أنتم المعتدين وتطلبون طردهم؟ ثم يقول لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[50]. أما قولُه: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فليس معنى الجهل هنا الشتم بأنهم قليلو المعرفة، وإنما معنى الجهل هنا، الجناية على الغير، والاعتداء في سَفَه وحُمق، كما يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ عَلينا فنجهلُ فوقَ جهلِ الجاهلينا[51]

ب. الردّ على قومه حين قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ من خلال مناقشة أفكارهم وتصوراتهم عن طبيعة الفضل نفسه. فهم يتصورون أنَّ الفضل لا بد أنْ يكون شيئاً محسوساً محدداً، سواءً أكان مادياً كالمال، أم روحياً كعلم الغيب، أم بالخروج عن طبيعة البشر إلى طبيعة أخرى. فيردُّ نوح على تصوّرهم هذا بقوله: إنني لا أقول لكم إني أملك خزائن الأرزاق، ولا أقول لكم إني أَعْلم الغيب، ولا أقول لكم إني مَلَك من الملائكة، وإنما أنا بشر مثلكم إلا أنَّ الله قد اختصني بالنبوَّة. فكأنه يقول لهم: أنتم مخطئون في تصوّركم أنَّ الفضل لا بد أنْ يكون بهذه الصورة. وأنتم مخطئون في احتقاركم وازدرائكم لي ولمن معي من المؤمنين لأننا لم نكن كما تتصور عقولكم[52].

50- انظر: المرجع السابق، ص 78- 79.

51- انظر معنى الجهل هنا في: أبو الفضل محمود الآلوسي: **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 12، ص42.

52- انظر: عبد الحليم حفني: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ص 81. محمد سيد طنطاوي: **أدب الحوار في الإسلام**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1997م، ص 143.

أما نتيجة هذه المحاورة، فقد كانت نصراً واضحاً لنوح عليه السلام. فقد أدْلوا بكل ما لديهم من حجج، وردّ عليها نوح وأبطلها جميعاً، فلم يكن أمامهم حينئذ إلا أنْ يعترفوا ولو ضِمْناً بهزيمتهم، وقد صاغوا هذا الاعتراف فيما يشبه الذم أو اللوم لنوح بأنه كثير الجدال، فقالوا له: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. وهكذا الجاهلون المعاندون عندما يعجزون عن الرد المقنع يُشهرون السيف في وجه من يحاورهم ويجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنه. ولكن هذا التحدِّي لم يخرج نوحاً عن سَمْتِه الكريم، وإنما ردَّ عليهم بكل أدب، وقال لهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. "أي: قال نوح لقومه بتواضع وأدب: يا قوم إنَّ العذاب الذي تتعجلونه، القادرُ على إنزاله بكم هو الله تعالى وحده، وإذا أنزله بكم فلن تستطيعوا الهروب منه، وإني قد دعوتكم إلى إخلاص العبادة لخالقكم بكل أسلوب، ومع ذلك فإنَّ نُصحي لنْ يفيدكم شيئاً ما دمتم مصرِّين على كفركم، وإذا كان الله تعالى قد أراد إضلالكم فلن أملك لكم من الأمر شيئاً، فهو سبحانه الذي بيده أموركم وأحوالكم، ومرجعكم إليه وحده، وسيحاسبكم على أعمالكم"[53].

وفي نهاية هذه المحاورة التي دارت بين نوح وقومه، فإنه يتبين لنا بكل وضوح أنَّ نوحاً قد سلك في حواره معهم الأدب الجمّ، والشجاعة الفائقة، والصبر الجميل، والكلام الحكيم، والحجة الناصعة، والشكوى إلى خالقه عز وجل. أما زعماء قومه الذين كفروا به فقد لجأوا في حوارهم إلى وصفه تارة بالكذب، وتارة بالجنون، وتارة بالضلال، وتارة بأنه يريد التفضّل عليهم، ثم يضيفون على كل ذلك التهديد والوعيد له ولأتباعه.

وهكذا العقلاء، فإنَّ محاوراتهم لغيرهم تقوم على المنطق السليم والأدب الرفيع والدليل الساطع والبرهان الواضح، أما محاورة السفهاء فتقوم على الغرور وسوء الظن، والتهديد والوعيد لمن يخالف باطلهم. ونوح عليه السلام يقدّم لنا في ذلك نموذجاً يُحتذى به في محاوراتنا اليومية مع المخالفين.

خاتمة:

في نهاية هذا البحث نذكر أهم الخلاصات، وهي:

1- أوْلى القرآن الكريم موضوع أدب الحوار أهمية خاصة، حتى يبقى الحوار عذباً رقيقاً، بعيداً عن الفوضى والمهاترة، فيكون بالتالي أقرب لتحقيق أهدافه المنشودة.

53- المرجع السابق، ص 143-144.

2- تُمثِّل المواقف الحوارية في القصص القرآني نماذج حيَّة لأدب الحوار، فإن حوارات الأنبياء مع أقوامهم تشير بكل وضوح إلى أدب الأنبياء في كل كلمة تفوَّهوا بها، وفي المقابل فإن كثيراً من مواقف الأقوام وردودهم، تدل على سوء أدبهم مع أنبيائهم.

3- يظهر أدب نوح في حواره مع قومه في طريقة العرض، من حيث الوضوح والتمهيد في الطرح، كما يظهر ذلك في الطريقة التي حاور فيها قومه، حيث كان حريصاً في حواره على تحقيق الألفة معهم، ولجأ إلى استثارة عقولهم من خلال صيغ الاستفهام والاستدلال الواقعي، ولم يتهمهم مباشرة بالضلال بل لجأ إلى صيغة البناء للمجهول، وأجاب على جميع تساؤلاتهم بالحكمة واللين.

4- قدّم لنا نوح عليه السلام نموذجاً يُحتذى به في محاوراتنا اليومية مع المخالفين.

****